صن يات صن

1866-1925

اكتشفت وأنا أقلب صفحات مجلة الطليعة اللبنانية القديمة هذا النص للزعيم الصيني منشوراً في عدد المجلة الصادر في شهر أيار من عام 1936.

و"الطليعة" هي مجلة فكرية وسياسية كان يدير تحريرها ويشرف على إصدارها عدد من كبار مثقفي اليسار في لبنان وسوريا. وقدمت المجلة لمقال صن يات صن بالكلمات التالية: "كان قد طلب إلى صن يات صن، زعيم الشعب الصيني الشهير وقائد الإنقلاب الوطني التحرري في عام 1911 أن يكتب فصلاً من سيرته بقلمه لتنوير العالم وإطلاع المهتمين بحركته والمناصرين لنهضة الصين الوطنية الإجتماعية على فصل حي من نضاله ونضال رفاقه في سبيل تحرير شعبه العظيم. استجاب الزعيم لذلك الطلب وكتب بقلمه النص الآتي: " كنت في عام 1885 قد بلغت الثامنة عشرة من عمري. ولم أكن يومئذ سوى نفر من أمثالي من الشبان الأغرار الذين لم يحصلوا على علم كاف. إلا أن أبي كان قد تنصر وجعل يخدم جمعية التبشير اللندنية في بعض مصالحها. فنالني من جراء ذلك حظ التقرب من المبشرين الإنكليز والأميركان الذين كانوا يقيمون في كانتون. ونلت الحظوة لدى إحدى السيدات الإنكليزيات فاعتنت بي. ولم يطل الأمر حتى صرت أتلكم الإنكليزية. فاشتغلت عند أحد المبشرين المسمى الدكتور كير. وإذ كنت ميالاً لدراسة الطب فقد أذن لي بقراءة ما أعثر عليه من كتب هذا العلم، لأني حسبت التطبيب نافعاً لي ولوطني. ولما علمت بافتتاح الكلية في هونغ كونغ أسرعت إليها وسجلت اسمي بين طلبتها. وأقمت فيها خمسة أعوام أحسبها أكثر أيامي رغداً وهناء. في نهاية تلك الأعوام نلت الشهادة التي سمحت لي بتعاطي الطب والجراحة. ومذ حصلت على شهادة الطب بدأت أسعى لاختيار بلد أقيم فيه. فقررت الذهاب إلى مكاو. وهي مستعمرة برتغالية واقعة على نهر كانتون. فأتيتها وجعلت أسعى للعمل. لكني لقيت مقاومة عنيفة من الأطباء البرتغاليين حتى كاد يداخلني اليأس من النجاح لمعاكستهم إياي.

لم أكن يومذاك من المشتغلين في السياسة ولا الجانحين للإهتمام بها، وإنما صرفت كل جهدي بمناظرة الأطباء. وإذا بباب داري ذات ليلة يقرعه شاب من تجار البلد. فلما جلس إلي سألني عما وصلني من العاصمة بكين عن نبأ زحف اليابانيين. فأجبته إني عرفت نذراً قليلاً من ذلك الذي أخبرني به الإنكليز. قال:"يا الله كيف يصح أن يكتم الأمر عنا؟". أجبته:"كان الأولى بجلالة الإمبراطور أن يكون أكثر ثقة بأمته منه الآن". قال:"إن ادعاء الملوك بالحق الإلهي لا يبقى إلى الأبد". فقلت:"صدقت! وحسبك ما قال كاتبنا الروحي شان بأن السماء تسمع لكن بآذان الشعب".

في تلك الليلة دخلت في عضوية جمعية "فتيان الصين". ولو شئت تعداد ما مر على بلادي من المحن والنوائب لطال بي الحديث. لكني أجتزئ بقولي إن رزيئتنا الفادحة هي الجهل المطبق. وحسبي أنه لم يكن يباح للأمة أن تعرف شيئاً عن الحوادث الجارية فيها، ولا يسمح لأحد من أفرادها بمشاركة الحكومة في أعمالها وآرائها. هذا الحال كان أشد إيلاماً في نفسي منه لسائر أقراني، لأني كنت عشير الإفرنجّ وعارفاً بمبلغ حريتهم وما يعلمون من سياسات حكوماتهم ومنهاجها. عندما تعذر عليّ إيجاد عمل في مكاو انتقلت إلى كانتون. وحين كنت مقيماً فيها وقع الحادث المؤلم المتمثل بانتصار اليابان عليها. وكان ذلك في عام 1894. فسعيت على أثر ذلك إلى تأسيس فرع لجمعية "كاولاوهوي". وحين كثر إقبال الطلاب على الفرع لقيني ذات يوم رجل من العظماء (المندرين) وخاطبني قائلاً:" ويحك يا صن. خذ حذرنني أحسست بأنني أشرف على الهلاك. ولم أبح منها إلا بما وصل إليّ من أخبار تفيد بأن الإمبراطور كوان هو قد أفاق من سباته العميق، يوم أظهر ارتياحه لقبول ما نريد من الإصلاح، وذلك بالرغم من رأي الأمبراطورة الأرملة. وما أن سمعت هذا النبأ حتى أسرعت إلى كتابة عريضة نسترحم بها شمولنا بنعمة الإصلاح. فوقع عليها مئات من الناس وأرسلناها إلى بكين. ثم لبثت هناك أياماً ونحن بين الخوف والرجاء. لكن حدث ما لفت إلينا الأنظار وكاد يودي بنا. ذلك أن فرقة كانتون في الجيش

عادت من حرب اليابان فأمرت الحكومة بنزع سلاحها وصرف أفرادها إلى أعمالهم. فهرعوا جميعهم للإنضمام إلى جمعيتنا. وكان رجال الشرطة والدرك العاملون في مدينة كانتون قد مرت بهم أشهر عدة لم يقبضوا فيها رواتبهم. فامتعضوا وهاجوا ومارسوا أعمال النهب. فاضطرب الناس وعقدوا اجتماعاً عاماً. ثم أرسلوا وفداً مؤلفاً من خمسمئة رجل للإحتجاج لدى الحاكم. فما أن دنونا منه حتى صاح بنا:"ويحكم إنكم لثائرون!". ثم أمر بالقبض على زعماء الوفد. فوليت هارباً. وتلك كانت أول مرة نجوت بها بالفرار. لكنها كانت فاتحة الهرب في مواقف أخرى.

لما وجدتني قد نجوت بنفسي أردت السعي لإنقاذ رفاقي الذين قادهم سوء الحظ للوقوع في قبضة الحكام. فقررنا أن نستولي على بلدة كانتون ونبقيها في حوزتنا حتى تجيبنا الحكومة إلى مطالبينا، فتجري الإصلاح المرغوب وتعدل عن وضع الضرائب الجديدة. غير أن الإستيلاء على المدينة لم يكن ميسوراً إلا إذا أسعفنا أهل ولاية سوالو الذين كانوا يشكون الضيم مثلنا. فجعلنا نجتمع كل يوم في لجنة الإصلاح. وأخذنا نحشد المقادير الكبيرة من السلاح والذخائر وقذائف الديناميت. رتبنا كل شيء ترتيباً حسناً وغدونا ننتظر مرور نجدة سوالو في مكان على بعد مئة وخمسين ميلاً عن كانتون، حيث كنا ننتظر أن تنضم إلينا جماعة من أنصارنا في هونغ كونغ. أمضينا لإتمام ذلك وقتاً. وفي حينه أقمت مع بعض أصحابي في دار اتخذناها خارج المدينة، وجعلنا من حولها مئة رجل شاكي السلاح. ثم شرعنا نرسل ثلاثين أو أربعين رجلاً سعاة ورسلاً. فيدخلون أحياء كانتون ويستنهضون الأنصار للإستعداد والتهيؤ للغد. مر كل ذلك بنا على أحسن انتظام حتى حسبنا النجاح قريباً. وإذا ببرقية وردت على واحد من زعماء أنصارنا في سوالو يقول فيها إن الجيش الأمبراطوري في وضع تأهب، فلن نستطيع أن نتقدم. فاحترنا في أمرنا. ووقعنا في حالة ارتباك وبتنا لا ندري ماذا نصنع. إذا لم ينجدنا أهل سوالو فلن نستطيع القيام بأي عمل. فرأينا أن نسترجع دعاتنا المنبثين في أنحاء البلاد. ولم يكن لنا سبيل إلى

ذلك إلا بإرسال البرقيات. فبعثنا بها إلى هونغ كونغ. لكن ذاك لم يجدنا نفعاً. ذلك أن أنصارنا فيها كانوا قد أرسلوا إلينا أربعميئة مقاتل ومعهم عشرة صناديق مملوءة بالمسدسات. وقد ركبوا البحر إلينا على إحدى البواخر. عندما علمنا بذلك اضطربنا أيما اضطراب، ووقع الخوف الشديد علينا. فأسرعنا إلى أوراقنا وأحرقناها، وإلى ما جمعنا من السلاح والذخيرة فطمرناه في الأرض. وغدونا نحن المؤتمرين والمهرة منا من يولون الأدبار هرباً من بطش الحكومة الآتي إلينا. وقد هربت مع من هرب. ولم أجد لي مكاناً أختبئ فيه إلا في مياه ترعة المدينة أياماً وليال عدة، أطوف فيها بين اللصوص إلى أن أسعدني الحظ فوجدت باخرة صغيرة كنت أعرف ربانها. فصعدت إليها وسافرت معه حتى انتهينا إلى ماكاو. ولما نزلت برها قرأت إذاعة من الحكومة الأمبراطورية تعد بها بأداء عشرة آلاف تايل لمن يقبض عليّ. ثم علمت أن الشرطة قبضت على بعثة هونغ كونغ عند وصول الباخرة إلى المرفأ. وكان هذا آخر العهد بالثورة التي دبرناها في عام 1895. على أني لم أمكث في ماكاو إلا بضع ساعات اجتمعت أثناءها بصديقي التاجر الذي استنهضني للدخول في المعترك السياسي، فقال لي:"وما شأنك الآن وقد أوغلت في العمل". قلت: "الصبر إلى النهاية. وما نحن الآن إلا في بداية المهمة". خرجت من ماكاو وذهبت إلى هونغ كونغ. ولم أجد فيها مكاناً آمناً. فأشار عليّ أصدقائي من الإنكليز وغيرهم بأن أرحل عنها لأن باع الحكومة طويل. ولئن كانت هونغ كونغ أضعف منها في سائر أقطارها فإن ضعفها لا يردها عن أن تنالني بسوء.

لا أكتم القارئ أن الأصدقاء الذين عاهدناهم على الولاء لم يكونوا يضنون بالنفوس وبالنفائس في سبيل البلوغ إلى الهدف المبتغى، وفشل سعينا لم يصرفهم عنا ولا أبعدهم عن السخاء. لكم كنت أستدر أكفهم لينجدوا سعينا بالمال، فكانوا يلبّون. ولما سألتهم العطاء لأستطيع القيام بنفقات السفر أجابوا بملء الإرتياح. نعم إن نفقات اغترابي ليست بذات بال. لكن العطاء يدل على الكرم والثبات في المبدأ. على أني رحلت واقتصدت في نفقاتي

كل الإقتصاد حتى كانت تمر بي الأيام والأسابيع وأنا لا أنال خلالها شيئاً من القوت غير حفنات من الأرز، فأكتفي بها راضياً. وكنت أمشي على قدمي مئات الأميال. وكانت لي عصبة من الأصدقاء المريدين من الجالية الصينية في أميركا، وكلهم من أهل الغنى والسخاء وعندهم نزعة وطنية وغيرة فائقة. وقد عرضوا علي مبالغ طائلة فأبيت قبولها.

خرجت من هونغ كونغ إلى كوبا. وهناك عملت عملاً خطيراً. ذلك أني قصصت جديلة شعري وعدلت عن حلاقة رأسي والشاربين. وأقمت أياماً حتى نبت الشعر. ثم اشتريت ثياباً يابانية. ولما لبستها نظرت في المرآة وإذا بي أراني قد تغير شكلي تغيراً كلياً لم أكن أنتظره. وكان لون وجهي أشد سمرة من ألوان قومي. فلم يكن من يحسبني صينياً، بل ظن بعضهم أني من أهل مالاي. واعتقد آخرون أني من هونولو. وقد أخطأ الجميع طبعاً بزعمهم لأنني صيني قح. ولم يكن من بأس عليّ لما اتخذت من الزي الياباني لباساً. ظهر لي صدق ظني هذا حين حسبني قومي يابانياً. فنلت منهم كل تجلة وإكرام ونجوت من مآزق حرجة. غير أني لم أكن أعرف من لغة اليابانيين حرفاً واحداً. فكان ذلك مثيراً للبلبلة لأن اليابانيين أنفسهم كانوا ينظرون إلى سحنتي ولباسي فيخالون أني منهم. حتى إني كنت ذات مرة ماراً في سوق مزدحم بالناس فرأيت عيوناً تترصدني. ثم إذا باثنين من اليابانيين أبصراني فحسباني من قومهم وتقدما مني يحدثانني. فوقعت في حيرة. وأدرك الرقيب أمري. فوفقني الله إلى النطق ببعض كلمات كنت حفظتها. فكانت كافية في رد العيون عني.

أقمت بعض الوقت في اليابان. وذهبت منها إلى هونولولو. هناك لبثت ستة أشهر بين قوم من الصينيين رحبوا بي كل الترحاب، لأنهم كانوا قد عرفوا بأعمالي وبأن الحكومة الأمبراطورية وعدت بجائزة سخية كل من يقبض عليّ أو يقتلني. وبدأت هناك أجمع المريدين وأستقبل رسائل الأصدقاء وتقارير الأنصار. ثم ذهبت من هونولولو إلى سان فرنسيسكو، ومنها جعلت أجول في الديار الأميركية وألقى أينما اتجهت استقبالاً باهراً كأني

فاتح عظيم. لكنني عرفت أيضاً أن سفير الصين وردت إليه أوامر حكومته تحرضه على اختطافي وإرجاعي إلى وطني، حيث ألقى جزاء عملي. ولم أكن لأجهل مبلغ القصاص الموضوع لأمثالي. وذلك أن يضعوا الرجلين في مقمطة ويضربون على الكعبين بمطرقة ضخمة حتى يسحقونها سحقاً. وبعد هذا يسملون العينين باقتلاعهما من محاجرهما مع الحواجب، ثم يقطعون الجسم إرباً أرباً لئلا يصح لأحد من الناس طلب الجثة لدفنها. كل هذا يدل على أن المشترع الصيني في هذه الأمور لم يبق مجالاً لرحمة المذنب في قلوب المشفقين عليه.

في عام 1896 سافرت إلى إنكلترا. وعندما وصلت إلى لندن اختطفني قوم دستهم عليّ سفارة الصين بإيعاز من حكومتها. ذاع خبر اختطافي في كل انحاء العالم وتحدث به الناس. وعرفوا دقائق ما كان من رأي بحاجة لإعادة القول فيه. غير أني أقول بأنني وجدتني مقيماً في حجرة مقفلة وعلى بابها خفراء يشددون الحراسة. فبقيت على ذلك الحال اثني عشر يوماً وأنا أتوقع إرسالي مع إحدى البواخر المسافرة إلى الصين، لأن السفارة ادعت أني مجنون صيني قضت عليها الضرورة بإرسالي مخفوراً إلى بلادي. ولولا أن قيض لي وجود صديقي الدكتور كاتلي يومئذ في لندن لأرسلوني إلى حكومتي فقضي عليّ قضاء مبرماً. إذ أهتديت إلى طريقة أبعث بها رسالة للصديق المشار إليه. فلما علم بأمري دوّت الصحف بالرواية، وعلم الشعب الإنكليزي بما حدث لي وثار ثائره. وعلم اللورد رزبري بالأمر، وكان يومئذ رئيس الوزارة، فطلب إطلاق سراحي. وبذلك نجوت.

جعلت أصرف الأيام بعد ذلك في لندن وباريس دارساً متعلماً حتى خطر لي بعد حين أن أرجع إلى الصين، لأني شعرت بأن الوطن يحتاج إليّ. الحق أني ما وطئت أرض بلادي حتى لاح لي أن الفوضى ضاربة أطنابها وأن الأفكار في اضطراب عظيم. كانت حادثة "البوكسرس"، وشأنهم معلوم لدى الناس أجمعين. كنت يومئذ أكتب المقالات الضافية وأخطب في الناس وأحدث الأفراد والجماعات حتى لاح لي أن وقت الإنقلاب قريب. إلا أن

كثيرين من الوطنيين كرهوا مني عملي، وترصدوا لي الشر والأذى، لأنهم كانوا يكرهون الإفرنج وكل شيء إفرنجي، وتحدثهم نفوسهم بفوز "البوكسرس" وطرد الأجانب من الصين. وإذ كنت أختلف معهم فقد حملت، على ما يقال، روحي على كفي.

حدث ذات مرة أني كنت أخطب في جماعة من أتباعي فوقعت عيناي على رجل ناحل البدن، قصير القامة، شاحب اللون، يعادلني عمراً. لم أعرفه حتى إذا انتهيت من الكلام دنا مني وقال:"تحدثني نفسي بمتابعة رأيك وأن أصير لك نصيراً، لأن عملك قرين النجاح". ثم مد إليّ يده فصافحته وشكرته وأنا لا أعرف من يكون من الناس. إلا أن لهجة حديثه جعلتني أعتقد أنه أميركي. ولما تركني سألت عنه صديقاً بجانبي فقال لي إنه الكولونيل روبرت لي من أشهر العارفين بفنون القتال. فأدهشني عرضه عليّ المناصرة. في اليوم التالي ذهبت لزيارته وقلت له: "إني إذا فزت بما أريد وعهد وطني إليّ بالأمر اتخذتك مستشاراً عسكرياً لي. فأجاب:"لا أنصح لك أن تصبر على ضيم وطنك حتى تغدو الرئيس المطاع في الصين. بل أحسبك تضطر إلى قبول مساعدتي قبل ذلك الحين. لأنك لا تستطيع أن تنشئ حكومة من غير جند أو أن تعضد دولة قائمة بلا عسكر. أما أنا فإني لأحسب الصيني من أحسن الجنود متى تعلّم وتدرب".

هذا هو قول الرجل الباسل الذي ارتقى بعد ذلك في الجندية وصار قائداً كبيراً برتبة فريق، وألف كتاباً مشهوراً في الغرب عنوانه "بسالة الجهل". لقد صدق في ما قال عن جنود الصين، لأن معظم الذين دربهم على النظام الحديث كماة حرب. لكنهم لم يكونوا يعطون قذائف لسلاحهم. وظلوا كذلك حتى اغتصبوها من مركز "هانيان". وأما أخلاقهم فحسنة، وكلهم من طلاب الإصلاح لأنهم وطنيون صادقون.

كان أصدقائي يتوجسون عليّ خوفاً. لكنني لم أكن أبالي لأني استسلمت لحكم القدر. حدث لي حينما كنت في نانكين على ظهر إحدى السفن إني ما فتحت باب حجرتي في الصباح الباكر حتى تقدم إليّ رجل يقول: "إي صن! إني رجل فقير بائس أعيل امرأة

وولداً". فقلت: "فهمت مغزى ما تقول وهو أن بعض الناس يؤدونك مئة ريال لقاء الغدر بي". أجاب: "بل أكثر مما ذكرت". قلت: "ألفاً!". أجاب: "بل خمسة آلاف، وما أنت إلا رجل فرد والأمبراطورة تستطيع أن تفتك بكثيرين وهي تكرهك، وتسعى لقتلك فلا يبقى منك فائدة لأحد من الناس لأنك لا بد مقتول. فهل لك أن تسمح لي الآن بقتلك، فأستغني وأعيش مع أهلي سعيداً؟". قلت: "صدقت في ما تقول. وأنت تطلب رأسي وما هو بالشيء العزيز الغالي عليّ. ولكن هبك نلت مني ما تريد وحملته غنيمة، فهل يخطر لك أن الوجهاء العظماء (المندرين) يتركون لك المال ولا يسلبونك أكثر مما غنمت، فتعود أشد فقراً ويبقى أولادك وملايين من أولاد الآخرين فقراء بائسين على مدى ألوف السنين؟ فاصغ إليّ يا صاح، واعلم أن رأسي هو رأسك، لأني لك فهل ترضى أنت أن تأخذ خمسة آلاف ريال ثمناً لرأسك؟ امض إذاً إلى آمرك وقل له إني هنا على هذه السفينة ولا أبرحها حتى يجيء!". ما كدت أنتهي من كلامي حتى سقط على قدمي يلتمس عفواً. وفي اليوم التالي بلغني عنه ما ساءني جداً، وهو أنه أغرق نفسه في البحر لأنه خطر له أن يسلمني لأعدائي. وهناك من حكايات الجائزة ما يدهش ويروع. وما كل الذين سمعوا بها مثل ذلك البائس الغيور. بل ثمة رجال كانوا يتمنون الفتك بي طلباً للغنيمة وما ردهم عني إلا تيقظ أصحابي. ففي ذات مرة أقمت في الدار ستة أسابيع لا أبرح حجرتي خيفة الرقباء. ومرة أخرى كنت في ضاحية كانتون في كوخ صياد حقير، فقيل لي أن الحكومة أقامت في غابة قريبة من الموضع اثنين من الجنود، وأمرتهما بإطلاق الرصاص عليّ. فأقمت هنالك مدى يومين. وعرفت بعد هذا أن الحكومة قتلت ذينك الجنديين لتقصيرهما في قتلي. إلا أن الخطر العظيم الذي دهمني في كانتون كان أعظم مما ذكر وأشد هولاً. ذلك أني كنت ذات ليلة في حجرتي وقد خلعت ثيابي وجلست أقرأ أوراقي، وإذا بباب الحجرة قد فتح ودخله مأموران وطنيان يقودان اثني عشر جندياً تركوهم ظاهر الحجرة. فلما رأيتهما نبذت الأوراق جانباً وأخذت كتاباً مقدساً وجعلت أقرأ فيه بصوت مرتفع. فوقفا صامتين هنيهة. ثم سألني أحدهما سؤالاً. ولما أجبته سأل مسائل أخرى. وفتحت بيننا أبواب البحث والجدل

وقصصت عليهما حكاية حالي مفصلاً. وبعد مضي ساعتين خرجا وسمعتهما يقولان للجند: "ليس هذا مطلبنا، لأنه رجل صالح يداوي أوجاع الناس".

قصارى القول أني جمعت ذات مرة المقادير التي وعدت الحكومة بها لمن يظفر بي. فإذا هي سبعمئة ألف تايل، أي مئة ألف ليرة إنكليزية. ولقد سئلت مرة: "لأي غرض تذهب الآن إلى لندن متظاهراً بوجودك غير محاذر شراً"؟ قلت: "لأني صرت لا أحفل بحياتي بعد أن وجدت في قومي من يقوم مقامي إذا قضي عليّ". على أني لو قتلت منذ عشر سنين، أو لو قبض عليّ يومئذ وأخذتني حكومتي، لخفت على عملي ومبدئي أن يذهبا أدراج الرياح. أما وقد تم لي تنظيم الحلقة وتدبير الإنقلاب، فقد صرت لا أبالي لأن لي خلفاء كثيرين".

ولما حطت الحركة البوكسرية أوزارها ذهبت إلى أميركا، لأني شعرت بالحاجة الماسة إلى المال. فمن دونه لا نستطيع استحضار السلاح والقذائف. ولا سبيل للإنتفاع بالنذر القليل الذي كنا ننالـه من الأصدقاء. بل الحاجة كل الحاجة لنصف مليون من الجنيهات. فلما بلغت أميركا جلعت أتوسل لتأمين الدعم السياسي. فطفت كل المدن الكبرى. واجتمعت بكبار رجال المال والصيرفة في أوروبا. وأرسلت رسلاً إلى أقاصي الأرض. فأحسنوا العمل. إلا أن قوماً قالوا لي بأن بعض من أرسلتهم قد جمعوا مالاً طائلاً وأكلوه سحتاً. ولست لأذكرهم الآن. لكن الوطنيين عرفوا بما جنى أولئك الخونة فعاقبوهم بما يستحقون.

لقد لقينا من العالم، لا سيما من الأميركان، صغاراً وشناراً. قالوا عنا أن الصينيين أدنياء كسالى. وتلك وصمة شنعاء بحق شعبنا. وما قالوها إلا لأنهم لم يكونوا يعرفون الحقيقة. لكن من المحسنين قوم جادوا بكل ما استطاعوا إليه سبيلاً. وعندما زرت فيلادلفيا ألقيت خطاباً في قومي. وفي الصباح التالي جاءني إلى النزل رجل صيني يحترف غسل

الثياب. فألقى بين يدي كيساً مملوءاً ذهباً. ثم مضى لحال سبيله من غير أن ينبس ببنت شفة. وعلمت أن الرجل أعطاني كل ما جمع من حطام الدنيا في مدى عشرين عاماً.

عندما علمت بوفاة الأمبراطورة الأرملة أدركت أن حظ بلادي صار بين يدي الوزير الخطير يوان شيه كاي. إلا أني عرفت أنه لا يستطيع أن يبدي عملاً وأنا بعيد عن الوطن.

ومما يحكى أن الغربيين يتصورون بأن الصينيين قوم لا يرغبون في مخالطة الأجانب، وأنهم لا يفتحون ثغور بلادهم للتجارة إلا برؤوس الحراب. والحال هو أن ذلك الظن إثم وخطأ. والتاريخ أعظم شاهد على ما أقول. فالصين قبل استفحال سلالة "مانشو" كانت على صلة مستمرة محكمة مع أهل الجوار. ولم يظهر من أهلها شيء من الكره أو النفرة من الأجانب تجاراً كانوا أو مبشرين. بل كان أولئك الأجانب يطوفون أرجاء السلطنة بملء الحرية والسهولة. وفي زمن السلالة "منك" لم يكن في الصين شيء من روح العداء للأجانب. إلا أن سياسة التساهل انقلبت باستفحال آل "مانشو". فأقفلت البلاد في وجه التجارة الأجنبية. وطرد المرسلون منها. وقاموا على المسيحيين الوطنيين فذبحوهم ذبح الأنعام. ومنعوا أبناء الصين من الخروج منها. وجعلوا القتل جزاء من يخالف الأمر. كل ذلك لأن آل "مانشو" رغبوا في إخراج الأجانب وفي إشراب الأهلين روح البغضاء لهم والنفرة منهم، لئلا يفضي الأمر بالصينيين إذا خالطوا الأجانب إلى الإفاقة من سباتهم العميق، فتظهر لهم وطنيتهم الحقة مظهراً لا يوافق الغاصبين.

لعل من الناس من يؤاخذني على مناهضة الحكومة الأمبراطورية والأسرة المالكة. فلا أرى أن أؤيد عملي بغير الشكاوى الآتية: أولا، إن آل مانشو التتر يحكمون حكماً مداره جلب المنافع لأنفسهم وليس لمحكوميهم. ثانياً، يعارضون تقدمنا المادي والأدبي. ثالثاً، ينظرون إلينا كشعب وجب عليه الإذعان، وينكرون علينا حقوق المساواة بهم. رابعاً، لا يبالون بما لنا من حق التمتع بالحياة والحرية والملك. خامساً، أضلوا مسلك الحكام، وجرأوهم على التوغل والإفراط في الفساد. سادساً، ألغوا حرية الخطاب. سابعاً، ألقوا علينا

الضرائب الفادحة الناشزة عن سبل العدل ولم يستشيرونا في رميها علينا. ثامناً، يعذبون المحكومين العذابات المبرحة الوحشية. تاسعاً، يظلموننا ولا يمكنوننا من نيل شيء من حقوقنا. عاشراً، لا يقومون بما وجب عليهم من صيانة أرواحنا وأموالنا، مع أننا عائشون تحت حكمهم. ومن ثم فإنا لئن لم نجد من آل "مانشو" إلا ما يستفزنا لبغضائهم، فإذا حاولنا جهدنا أن نسألهم فما نلنا إرباً. سعينا لتحسين الحال لعلنا نبلغ بالمسالمة إلى ما نريد من إقامة العدل ونشر السلام، فما فزنا بطائل ولم نجد إلى قصدنا سبيلاً إلا بقلبهم عن عرشهم. فإن سكنت غلواء إثرتهم كان به، وإلا فإنا نضرمها عليهم حرباً تشيب لها ولدانهم".

تلك هي صفحة من سيرة ذلك الزعيم الصيني الكبير. لكن المهم في سيرته هو أنه حاول أن ينقذ شعبه في عام 1911 من حكم أمبراطور طاغ. لكنه سرعان ما خسر الرهان بعد انتصاره. لكنه لم ييأس. بل هو تابع كفاحه باسم حزب الكيومنتانغ الذي صار على امتداد حياته مركز الحركة الوطنية، والإطار العام الذي كانت تلتقي في صفوفه جميع القوى الوطنية الثورية. وكان في مقدمة أولئك الوطنيين الثوريين الشيوعيون قبل تأسيس حزبهم الشيوعي في عام 1921 وبعد تأسيسه. وظلوا شركاء للقوى الوطنية الأخرى في ذلك الحزب حتى بعد وفاة صن يات صن، وفي عهد خلفه تشان كاي شك. لكن هذا الأخير الذي كان معروفاً بعدائه للشيوعيين لم يتأخر في تصفية الحزب منهم في أبشع أشكال الإنتقام طرداً وتعذيباً وقتلاً جماعياً. وكان تشان كاي شك بسلوكه ذاك يغير من طبيعة حزب الكومانتانغ ومن المهمات الوطنية التحررية التي أسس الزعيم صن يات صن الحزب لإنجازها بمشاركة جميع الوطنيين. وانتهى الأمر بتشاي كان شك تدريجياً إلى الموقع الذي أصبح فيه خلال الثورة الصينية وبعد انتصارها دمية في يد القوى الخارجية المعادية للصين ولشعبها.